

الخطاب الحوارى فى القرآن الكريم

د . لخضر روبحى

جامعة المسيلة

ملخص المداخلة: إنّ مستويات الخطاب القرآنى متعدّدة، منها: التشريعى التاريخى، العقلى والحوارى... تدور فى محاور كبرى هي: (الله، الإنسان الطبيعى) ومحاولة منّا لتحليل جانب من هذا الخطاب هو فى حقيقة الأمر يعتبر تأكيداً ومجالاً تطبيقياً لمسيرة النزعة العقلية فى جانب من جوانب الدراسات القرآنية. فالخطاب القرآنى من خلال لغته قريب التناول وواضح للجميع، لأنّه تفرّد بمناهج أعلى من الخطابة كما أنّه أعلى من الشعر والسّجع. وإنّ بني على حروف البشر وألفاظهم فهو أسمى من كلام البشر. وقد حاول علماء البلاغة حصر أوجه الاستدلال التى دار عليها حوار النصّ القرآنى، والتى كانت أهمّ مساعد على فهم الخطاب فنكروا أوجها كثيرة (كالتعميم والتخصيص والمقابلة) تناسبا مع فهم النّاس، إذ منهم من يصدق بالجدل، ومنهم من يصدق بالبرهان ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية. وفى هذا السياق تأتي مداخلتنا لتكشف عن هذه الحقائق، وتوضّح معالم هذا الخطاب تجسيدا للغاية البعيدة التى يراهن على تحقيقها هذا الملتقى الهادف.

تعريف الخطاب: قبل الحديث عن الخطاب الحوارى فى النصّ القرآنى، ارتأيت تقديم تعريف الخطاب. الخطاب فى اللغة، توجيه الكلام المفيد إلى حاضر، بحيث يسمعه، فلا يكون إلى بين طرفين¹ والمقصود منه معرفة مراد المخاطب (بالكسر) فوجب أن يكون لمعرفة ذلك طريق تفضي إليه، وإلا كان الخطاب تعميما وتليبسا وعدولا عن البيان². أما فى الاصطلاح فقد عرفه أحد اللسانيين الخطاب بقوله: "كل نطق أو كتابة تحمل وجهة نظر محددة من المتكلم أو الكتاب و تفترض نية التأثير على السامع أو القارئ، مع الأخذ بعين الاعتبار مجمل الظروف والممارسات التى تم فيها"³. فالخطاب إذا، وسيلة من وسائل الاتصال، وهو ينضوي تحت اعتبارين:

أ) باعتبار مقول المخاطب (بالكسر).

ب) باعتبار مقروء القارئ.

المحاور الكبرى التى دار عليها الخطاب فى النصّ القرآنى: يدور الخطاب فى

النصّ القرآنى حول ثلاثة محاور كبرى: (الله - الإنسان - الطبيعى).

أ) الله: واجب الوجود - الوجود غير المعلّل.

ب) الإنسان: جائز الوجود، وجودا معللا.

ج) الطبيعى: موظفة للاستدلال على إثبات واجب الوجود، ومسخرة للإنسان

بمدى إمكاناته العلمية والعملية.

وهذه المحاور كلّها وردت في الخطاب القرآني لصيغ مختلفة، كالخبر والوعد والوعيد، والقصة...إلخ.

مستويات أخرى للخطاب:

1 - مستوى الخطاب باعتباره للهداية إذا تقرر أنّ الخطاب القرآني جاء لهداية البشرية مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي، وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ فَمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾⁴ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾⁵ وقوله: ﴿... وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾⁶ فإنّ سبيل الهداية في القرآن اتخذ الخطاب المباشر، وغير المباشر، للذين يرجو لهم هذه الهداية، وهم البشر كافة، والبشر مختلفون اجتماعيا وفكريا وعقليا وعقائديا ومن ثم كان الخطاب يتّجه، لهؤلاء جميعاً، كلما يستطيع إدراكه من هدايته. فبالنسبة للخطاب المباشر، يتم -مثلا- عن طريق الوعظ، والأمر والنهي والتبشير والإنذار والترغيب والترهيب. أما غير المباشر: فعن طريق ضرب المثل والقصة، وتحليل النفسيات وتعرية الواقع النفسي والفكري لشخص أو مجتمع حتى تتكشف حقيقته.

2 - مستوى الخطاب باعتبار النماذج البشرية: ذكر القرآن الكريم نماذج بشرية بقيت خالدة، لأنّه صورها في مختلف أوضاعها ومواقفها من الدعوة، وأهم هذه النماذج: المؤمنون - المسلمون - المصدقون - المهتدون - الصالحون - الكافرون - المكذوبون - المنافقون - الظالمون - المجادلون - المعتدون - المخادعون... والتحليل الذي أعطاه الخطاب لهذه النماذج، يمكن أن نجده في كلّ عصر وبيئة ولو قرأنا سورة البقرة - مثلا - لوجدناها حافلة بذكر نماذج كثيرة، مع سياق ما ذكرت من أجله.

3 - مستوى الخطاب باعتبار مراحل النزول وأسبابه: وهو مستوى اعتنى به الأقدمون والمحدثون، وبينوا الغايات منه.

4 - مستوى الخطاب: باعتبار المخاطب (المكلف): وفي هذا المستوى من الخطاب، نجد الأصوليين قد تناولوه بإسهاب. لما فيه من نصوص متعلّقة بالجانب العملي في الشريعة الإسلامية. وهو نوعان: خطاب تكليف، وخطاب وضع. أ) خطاب التكليف: هو ما ورد فيه التكليف بالفعل أو الترك مباشرة من غير واسطة ويندرج تحت هذا النوع (الواجب - المنذوب - الحرام - المكروه - المباح).

ب) خطاب الوضع: هو ما كان التكليف فيه بواسطة الأسباب والشروط والموانع.

5 - مستوى الخطاب العقلي المعرفي: إنّ القرآن الكريم، وهو يضع أساس التصور الصحيح للإنسان في مسيرته الطويلة، جعل من أساسيات منهجه القيمة العليا والمطلقة للعلم والمعرفة، وجاءت النصوص المتكررة التي ترفع من شأنها وتحض على الاستزادة، ولا تخصصها بجانب دون آخر، قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾⁷. وقال: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾⁸.

6 - مستوى الخطاب الغيبي: وهذا المستوى ليس في متناول العقل ولا يتوصل إليه بالحواس، وقف أمامه الفلاسفة طويلا وحاولوا تفسير ظاهرتهم لكنهم تفرقوا مذاهب قديدا، أمّا أهم محاوره: (الله - الملائكة - الجنة - النار - البعث - الجزاء...).

وهذا المستوى ينطلق من مفهوم الوحدانية، والقدرة المطلقة في صيغ جدلية بين الإيمان والكفر، وبين كمان الإله وقصور الإنسان مستعملا الدليل الجدلي التسليمي.

7 - مستوى الخطاب الكلامي: انطلاقا من كون الإنسان مجهز بقدرات عقلية حاول المتكلمون عقلنة الإيمان، انطلاقا من النص القرآني، الذي خاطب هذا الإنسان بصيغ تصف الله تعالى، ومن الآيات التي كانت مثار نقاشات متعددة وصراعات حادة قوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾⁹ وقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾¹⁰.

8 - مستوى الخطاب التاريخي: وقد تضمن الخطاب القرآني بالنسبة للتاريخ أنواعا متعددة أهمها:

أ) عرض الوقائع والأحداث التاريخية -من أجل استخلاص العبر والسنن التاريخية التي تحكم حركة المجتمع والتاريخ الإنساني- وقد استخدم القرآن الكريم عدة أساليب في عرضها من بينها: الأسلوب القصصي مثل: (قصص الأنبياء ودعوتهم ومعجزاتهم وموقف المعاندين منهم ومراحل الدعوة، وقصص الحوادث الغابرة والأشخاص وقصص الأحداث والوقائع المعاصرة للرسول صلى الله عليه وسلم كالغزوات مثلا).

ب) بداية التاريخ الإنساني: ولنأخذ مثلا عليه واقعة خلق الإنسان الواردة في سورة البقرة ابتداء من قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾¹¹. ثم إنّ الخطاب القرآني بالنسبة للإنسان يحيلنا على ثلاثة أزمنة هي:

أ) زمان هذه الحياة المباشرة أو الزمان القصير الذي هو مرحلة اختبار. قال تعالى: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل﴾¹² وقوله تعالى: ﴿إنما مثل

الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴿١٣﴾ وقوله تعالى: ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا﴾¹⁴.

ب) زمان الموت: ومدته غير محددة. قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾¹⁵.

ج) زمان الحياة السرمدية، الذي تتطلع إليه الخليفة كلها. قال تعالى: ﴿إنا نحيا ونميت وإلينا المصير﴾¹⁶ وقال سبحانه: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دار القرار﴾¹⁷.

9 - مستوى الخطاب الحواري: إن الخطاب القرآني من خلال لغته كان وسيبقى قريب التناول في الإدراك لكل الناس، يفهمه الخاصة والعامة، وإن تفاوت الفهم بمقدار الإدراك، وسعة الأفق، وهو واضح للجميع، ذلك أنه تفرد بمناهج أعلى من الخطابة، كما هو أعلى من الشعر والسجع، وإن بني على حروف البشر وألفاظهم فهو أسمى من كلام البشر. وقد حاول علماء البلاغة حصر أوجه الاستدلال التي دار عليه حوار النص القرآني، والتي كانت أهم مساعد على فهم الخطاب، ومن أهم الأوجه التي ذكروها:

- الاستدلال بالتعريف؛
- التجزئة؛
- التعميم؛
- التخصيص؛
- العلة والمعلول؛
- المقابلة؛
- الاستدلال بالتشبيه والأمثال.

الخطاب الحواري في القصص القرآني: القصص هو العنصر الغالب في سورة الكهف، ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة صاحب الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ومعظمه قائم على الحوار. وتجلي الخطاب الحواري أكثر في قصة موسى مع العبد الصالح. ففي صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قاله منذ البداية: ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾. ويعتذر موسى بنسيانته، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير: ﴿قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً...﴾. ويقبل الرجل اعتذاره، فنجدنا أمام المشهد الثاني: ﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله...﴾ وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها، فهذه قتل نفس. قتل عمد لا مجرد احتمال. وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من

تذكره لوعده: ﴿قال أقنلت نفسا زكية بغير نفسا لقد جئت شيئا نكرا﴾. ومرة أخرى يردده العبد الصالح إلى شرطه الذي شرطه ووعدته الذي وعد، ويذكره بما قال له أول مرة. ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا﴾. ويعود موسى إلى نفسه ويجد أنه خالف عن وعده مرتين، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق، ويجعلها آخر فرصة أمامه: ﴿قال: إن سأئتلك عن شيء بعدها فلا تصاحبني. قد بلغت من لدني عذرا﴾. وينطلق الصياغ فإذا نحن أمام المشهد الثالث حينما قال له: ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا﴾. وكانت هي الفاصلة. فلم يعد لموسى من عذر، ولم يعد للصحة بينه وبين الرجل مجال: ﴿قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾. وفي سورة البقرة يذكر الله سبحانه وتعالى قصة أبينا إبراهيم عليه السلام مع ملك مجادل ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفرو الله لا يهدي القوم الظالمين﴾⁸. الآية تحكي حواراً بين إبراهيم عليه السلام وملك في أيامه يجادله في الله. وهذا الحوار يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الجماعة المسلمة في أسلوب التعجب من هذا المجادل، الذي حاج إبراهيم في ربه. ومن ثم يعجب الله من أمره وهو يعرضه على نبيه: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك؟ "ألم تر؟ إنه تعبير التشنيع والتفطيع، وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء. فالفعل منكرة حقا أن يأتي الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء! وأن يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله"¹⁹. ونتيجة لما تقدم أقول: إن فهم الخطاب القرآني بأي منهج من المناهج، لا يمكن معارضته، لأن القرآن الكريم أسمى من المناهج، ولكن الذي لا يمكن السماح به هو محاولة استغلال هذا الخطاب الكريم قصد الوصول إلى هدف مسبق، كما حاول و يحاول المتزعمون للمنهج المادي مثلا.

الهوامش:

- 1 - العربي اللوه: أصول الفقه، مطابع الشوبع تطوان، ط 2، 1404 هـ - 1984م، ص 46.
- 2 - من مقال الدكتور محمد الكتاني: إشكالية اللغة والفكر، مجلة المناهل، عدد 30، ص 20 .
- 3 - Emile Benveniste , Problèmes de L linguistique générale , Gallimard paris (1974) p 13 .
- 4 - سبأ 50.
- 5 - آل عمران 103.
- 6- النمل 92 .
- 7- المجادلة 11.
- 8 - الزمر 9 .
- 9 - الفتح 10.
- 10 - الرحمن 27.
- 11 - البقرة 30 - 39.
- 12 - التوبة 38 .
- 13 - يونس 24.
- 14 - الأنعام 130.
- 15 - الملك 2 .
- 16 - ق 42-50.
- 17 - غافر 39 .
- 18 - البقرة 258.
- 19 - سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ط 11، 1405 هـ - 1985 م، ج 1، ص 297 .